الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
People's Democratic Republic of Algeria
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministry of Higher Education and Scientific Research

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة
Mohamed Boudiaf University of M'sila
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
Faculty of Humanities and Social Sciences

المستوى: السنة الثالثة ليسانس
التخصص: علم الاجتماع
قسم: علم الاجتماع

مطبوعة محاضرات
مقياس: العلم والأخلاق

طبيعة المقياس: سنوي: ☐ سداسي: ☒

إعداد الدكتور: بن جعفر رمضان
البريد الالكتروني: (المهني) ramdhane.bendjafer@univ-msila.dz

السنة الجامعية: 2022 / 2023

المحاضرة رقم (06) الأخلاق في العصر الحديث

6/ الأخلاق في العصر الحديث:

تمهيد:

وُجِدَتْ الأخلاق منذ القدم وليست حديثة الوجود، وتحسنها غير مرهون بتقدم الزمن بقدر ما أنه مرتبط بنضج الإنسان وزيادة وعيه وتشبثه بدينه، وبالخصوص الدين الإسلامي الحنيف الذي جاء برسول عظيم حمل معه رسالة إتمام مكارم الأخلاق التي تعد المرتكز المتين لمعاملات المرء السوية مع الآخرين فبها تصير حمولته السلوكية متوافقة مع ما يتبناه من أفكار ومبادئ، وتعظم الحاجة إليها كلما تقدم الزمن وكثرت فتنه وانحرف التصرف الإنساني عن جادة الصواب، فالأخلاق بمثابة الضابط الداخلي الذي لا يكفي لوحده، والناس ليسوا كلهم أسوياء وواعون بما يفعلونه، لذا تعين أيضا استحضار القوانين سواء التي أتى بها الشرع أو التي وضعها البشر باعتبارها ضابطا خارجيا ملازما لتصرفات الفرد والمجتمع، ومما لا يدعوا للشك أن الأخلاق تنحط بتجاوز القانون الإلهي أو البشري وعدم إعطائه أي اعتبار لردعه وزجره لكل مخالف لما نص عليه.

هذا الزمن المادي المتطور في التقنية والتكنولوجيا والصناعة لا يعني أنه متطور في الأخلاق والقيم والانسانية، وهذا التباين الحاصل مؤشر واضح على وجود خلل في تركيبة الإنسان المعاصر، بل هو دليل قاطع على حالة الانحدار السريع نحو تلاشي القيم الأخلاقية وضمور الحس الإنساني، لأن أصل الصلاح البشري ليس بلوغ التطور المادي، وإنما الحصول على فكر سليم وروح نقية وقيم نبيلة، وفي حال غياب ذلك أمام الاستفحال المادي الواقع في عصرنا هذا، فإن الانحدار الأخلاقي حتمي وسيكون مصير البشرية الذي لا مفر منه.

والمتمعن في أحوال الناس اليوم لا يرى أي تعاظم للمنظومة الأخلاقية في نفوس الآخرين أمام المغريات المادية والمصالح الشخصية والمنافع الذاتية، فالتبجح بخلق الأمانة على سبيل المثال ليس أبدا دليلا كافيا على حسن الائتمان في ظل غياب بوادر الصمود أمام شدة الحاجة لما تم الائتمان عليه، لهذا نرى في هذا الزمان تراجع الناس معنويا وروحيا في كل شيء له ارتباط بالضمير والحس الإنساني، ربما يكون هذا الحكم قاسيا نوعا ما، وقد يبدوا لكم أنه يحمل شيئا من السلبية، لكننا في الحقيقة لا نستطيع أن نكون أكثر من هذا وإلا وقعنا في المحظور أخلاقيا ونحن نتحدث عن هذا الجانب الجوهري في الإنسان.

06/ الأخلاق في العصر الحديث:

6-1/ الأخلاق بين فلاسفة اليونان والعصر الحديث:

إننا نرضى بحكم أحد الفلاسفة المعاصرين على دور أرسطو وأفلاطون في مسؤوليتهما عن التميز العنصري، ونظرة التعالي التي دفعت بالإنسان الأوروبي إلى تحقير ما دونه من أجناس أخرى وتبرير استعمار واستغلال واستعباد غير الأوروبيين يقول **'برتراند رسل"** (لقد أخطأ اليونان خطأ فاحشا حين أحسوا شعور السيادة على الشعوب البربرية)، ولا شك أن أرسطو قد عبر عن فكرتهم العامة في ذلك حين قال (إن أجناس الشمال مليئة بشعلة الحياة وأجناس الجنوب متحضرة)، واليونان وحدهم هم الذين يجمعون الطرفين فشعلة الحياة تملؤهم وهم في الوقت نفسه متحضرون، وأفلاطون وأرسطو كلاهما قد ذهبا إلى أنه من الخطأ أن يتخذ من اليونان عبيدا، لكن ذلك عندهما جائز بالنسبة للشعوب البربرية.

ثم يبرز لنا **'برتراند رسل"** فكرة أخرى قال بها أرسطو حيث قَبِلَ عدم المساواة داخل المجتمع نفسه مما جعل **'برتراند رسل"** يتساءل(هل نرضى من الوجهة الخلقية عن مجتمع يسير وفق دستور من شأنه أن يخص الأقلية بأحسن الأشياء ويطالب الأكثرية بالقناعة بما هو دون ذلك؟)، ويصدر حكمه على مثل هذا الاعتقاد بأنه يخلق مشكلة أخلاقية سياسية في آن واحد، وبعد تحليل مستفيض يصل **'برتراند رسل"** إلى إصدار حكمه الآتي(لهذه الأسباب في رأيي يكون كتاب "**الأخلاق**" قليل الأهمية الذاتية على الرغم من شهرته.

واذا كان هذا حال التصورات الأخلاقية عند فلاسفة اليونان فإن امتداد تأثيرهم على الحضارة المعاصرة يجعلنا في موقف اليقظة والتحذير من الاقتداء بقيمها الأخلاقية التي هي في حقيقتها لا تخرج إما عن هدم الأخلاق وعدم الاعتراف بها كما في الفلسفة الماركسية، واما إخضاع الأخلاق إلى وسيلة نفعية يتم الأخذ بها إن حققت المصالح والآمال وتلقى بها جانبا وتهمل إن لم تفعل ذلك.

وكلا التصورين يعبران عن الحضارة الغربية، فإن **'ماركس**" بسبب اعتقاده في أن يكون التركيز على التقدم، وظن أن من الممكن "**الاستغناء عن الاعتبارات الأخلاقية**» فإذا كانت الاشتراكية آتية فهي لابد أن تكون تحسينا، وهذه النظرية في حقيقتها" **لا أخلاقية"** بالرغم من تناوله في الحديث عن أخلاق الطبقة العاملة والقيم التي تضعها لنفسها لأنه ما دامت القيم غير ثابتة وأنها تتغير وفقا للأغراض الطبقية، فإنه بذلك يهدم أهم ركن من أركان السلوك الأخلاقي الحق.

وكذلك الفلسفة العملية الأمريكية التي أقامت الأخلاق على تحقيق المنافع والمصالح بغير إقرار بثبات القيم الأخلاقية في ذاتها، ونكتفي بعبارة وردت على لسان أحد الرؤساء السابقين " **مستر ترومان** " نفصح بجلاء عن هذا الاعتقاد حيث وصف مساعدة بلاده لأوروبا عقب الحرب العالمية الثانية بالمشروع المسمى **بمشروع النقطة الرابعة** فقال: " إن مشروع النقطة الرابعة يعني بالنسبة للولايات المتحدة توسيع نطاق التجارة وزيادة أسواق التصريف وتموين أمريكا بالمواد الأولية"، وشاركه في الرأي وزير الخارجية آنذاك حيث قال: 'إن الدافع على الرغبة في نجاح المشروع ليس حب أمريكا للنوع البشري بل هو مصلحة أمريكا العملية.

6-2/ الأخلاق عند الفلاسفة الوضعيين والمعاصرين:

6-2-1/ الأخلاق عند أوجست كونت (1857م):

تحولت فلسفة الأخلاق عند الوضعيين إلى علم واقعي يدرس العادات متأثرين بالمنهج الاستقرائي في البحث العلمي، ومن ثم تطلعوا إلى اتباع هذا المنهج في العلوم الإنسانية وفي مقدمتها الأخلاق، وتحولت فلسفة الأخلاق عند الوضعيين إلى علم واقعي يدرس العادات والاكتفاء بوصفها استنادا إلى الملاحظة، وبهذا أصبح فرعا من علم الاجتماع الذي يأملون في إقامته علما واقعيا تجريبيا.

وكانت الأخلاق في صورتها التقليدية تتجه إلى أنها شيء مطلق وتجاوز نسبية الزمان والمكان لأنها وليدة الضمير الإنساني العام أو العقل البشري كله، أما الوضيعون فإنهم يقصرون مهمة عالم الأخلاق على دراسة العادات والعرف والتقاليد والآداب العامة والمثل العليا الجماعية التي تعارفت عليها المجتمعات....

كذلك يرى الفلاسفة أن للأخلاق طابعا عقليا وأن الحقيقة الأخلاقية **'واقعة ذهنية**" ولكن دعاة المذهب الوضعي يرون أنها – بخلاف ذلك– **"ظاهرة موضوعية"** يمكن ملاحظتها، وقد ظهر الاتجاه الاجتماعي في عصر اضطرب فيه التفكير الأخلاقي، وكانت الرغبة عند **"كونت"** ملحة كغيره من المفكرين، إنها الرغبة في الإصلاح والتعمير بعد الدمار الذي حلق بفرنسا بعد ثورتها المدمرة، وهو الذي أنشأ الفلسفة الوضعية في فرنسا، ويقول **"جارودي"** 'إن الأزمة المعنوية التي تكافح فيها مدنيتنا الغربية منذ ثلاثة قرون انما هي أزمة خلقية".

ولقد أطاحت الثورة الفرنسية بالنظام الاجتماعي، ووجهت إلى الديانة المسيحية ضربة قاصية، ورأى كونت أنه من العبث البحث في الديانة المسيحية عن أسس للأخلاق لعجزها في رأيه عن متابعة خطى العلم وأخذ يبحث عن أساس جديد وهو العلم الوضعي لكي يقيم عليه الأخلاق والدين، إنه رأى أنه ينبغي على التفكير الفلسفي النظري أن يتجه إلى المشاكل الدينية والاجتماعية، وكان يهتم اهتماما شديدا بالأمور الاجتماعية ثم العلم، فالخدمة التي ينتظرها **"كونت"** من الفلسفة هي أن تضع قواعد المجتمع الحديث بناء على أساس عقلي.

وأخذ **"كونت"** يبذل جهده لإعادة تنظيم العقائد، "أي لكي يستعيض عن العقيدة الموحى بها التي انتهت جذوتها إلى الركود بعقيدة يقوم عليها البرهان"، وبخلاف ذلك اعتقد أن العلوم الوضعية ستصبح أصلا للإيمان المستند إلى البرهان، وكلما تقدم الإنسان في الدراسة الوضعية للظواهر فإنه سيترك بالتدريج التفسيرات اللاهوتية والميتافيزيقية، لأنه سيتضح له أن الظواهر خاضعة للقوانين، فالمعرفة الحقيقية تنصب على الظواهر وقوانينها، وفي جملة القول ستصبح الفلسفة وضعية بالضرورة متى أصبح العلم بأسره وضعيا.

وقد تطلع واضع الفلسفة الوضعية إلى تأسيس علم الاجتماع أو ما سماه "**علم الطبيعة الاجتماعية**" الذي سيقضي على سبب وجود اللاهوت والميتافيزيقيا ويسير الانتقال من العلم الوضعي إلى الفلسفة الوضعية فتتحقق بذلك وحدة العقل فيؤدي ذلك إلى الانسجام الخلقي والديني للإنسانية، ويتصل إنشاء هذا العلم بالقانون المسمى **(بقانون الحالات الثلاث)** لأنه متى ثبت هذا القانون فإن علم الطبيعة الاجتماعية لا

يظل مجرد فكرة فلسفية بل يصبح علما وضعيا، وأقام كونت فلسفته على قانون الأطوار الثلاثة ولكنه تعرض لهجمات شديدة، إلا أن النزعة العلمية لفلسفته كان لها أثرها على نظريته في الأخلاق، وأصبح علم الأخلاق عنده فرعا من فروع علم الاجتماع الذي اعتبر مهمته ملاحظة الظواهر العقلية والخلقية وجعل مهمة علم الأخلاق تقوية العاطفة الاجتماعية، وجعله علما مستقلا يضيفه إلى العلوم الستة التي تتألف منها الفلسفة الوضعية الجديدة وهي " الرياضيات والفلك والطبيعة والكيمياء والحياة والاجتماع".

لم يقبل كونت مذهب المنفعة أو مذهب الواجب لأن الأول يقر الأثرة وينكر الغيرة الكامنة في طبائع البشر، والثاني يقوم على أسس ميتافيزيقية فيستحيل بحثها بالمنهج العلمي، كما لم يقتنع أيضًا بمذهب العاطفة بالمدرسة الاسكتلندية، وفي نظرته للأخلاق المسيحية أعجبه اتجاهها إلى الحث على الإيثار وتقديم العون إلى المحتاج والضعيف وتنفيرها من **الأثرة** التي تعد أم الرذائل، ولكنه في الوقت نفسه أخذ عليها التعثر في مسايرة التقدم العلمي فانصرف عن اتخاذها أساسا للأخلاق الجديدة، وبعد أن استبعد كونت أساليب كل من التفكير الميتافيزيقي واللاهوتي استبدل بهما مناهج التفكير العلمي أسوة بالعلماء الطبيعيين، فاتجه إلى "وضع قوانين تفسير الظواهر اللاأخلاقية توطئة للسيطرة عليها والإفادة منها في دنيانا الحاضرة".

6-2-1-1/ الخصائص الرئيسية للأخلاق الوضعية حسب نظرة كونت:

1/ إنها تقوم على أساس العلم الوضعي وتحقق صفاته ولهذا فهي حقيقية، أي تقوم على الملاحظة لا على الخيال وتنظر إلى الإنسان كما هو كائن بالفعل لا على النحو الذي يتخيل أن يوجد عليه.

2/ إن الأخلاق نسبية وتستمد نسبيتها من نسبية المعرفة وليس لها طابع مطلق، وقد أزعجت هذه الفكرة الكثيرين من المختصين لأنهم رأوا أن معناها نفي الأخلاق برمتها، فإما أن يكون الخير مطلقا أو ينعدم التمييز بين الخير والشر، ولكن كونت لم يشاركهم هذا الرأي إذ يرى أن العقل البشري كثيرًا ما تمكن من أن يعيش على حقائق نسبية" وسيأتي الوقت الذي يصبح فيه مثل هذا الحل مقبولا بالنسبة إلى الأخلاق.

3/ تتحدد المشكلة الأخلاقية في أن يبذل الإنسان قصارى جهده لكي يغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الأثرة، أي بعبارة أخرى أن تتغلب الترعة الاجتماعية على الشخصية الفردية.

4/ ومع تغلب العاطفة الاجتماعية بشكل مباشر في المذهب الأخلاقي لكونت فإنه يؤكد وجود الميول "الغيرية" وجودا فطريا في النفس البشرية، ويسمى هذه الميول (المودة) وهو تعبير مستمد من المدرسة الاسكتلندية، ويقول **"كونت"** (إنك إذا قررت هذه العواطف الغيرية ظهرت الأخلاق واذا انتزعتها اختفت الأخلاق"، ويتضح تأثره بأتباع المدرسة الاسكتلندية في الاتجاه العاطفي، إلا أنه يذهب إلى أنهم اكتفوا بتقرير وجود هذه العواطف وأهملوا البحث عن الكيفية التي تنمو بها الأخلاق، فالأخلاق عندهم ذات طابع سطحي وتنقصها الدقة المنهجية، ولكي تفسر الأخلاق الإنسانية تفسيرا كاملا ينبغي أن يضاف "إلى العناصر ذات الصبغة العاطفية عنصرًا ذا صفة عقلية"، معنى ذلك أن الحاسة الخلقية تنشأ بسبب عواطف المودة بين الناس، وكما يحدث أيضا لدى كثير من الحيوانات فهي عواطف تلقائية تتحول إلى حالات وجدانية عائلية واجتماعية، فالأخلاق غريزية طبقًا لجذورها الحيوانية وتصبح عقلية في تطورها الإنساني.

وقد تعرضت فلسفة كونت الوضعية لألوان من النقد والمعارضة استهدفت قانون الأطوار الثلاثة الذي قسم به تاريخ الإنسانية في تعسف واضح، قد ثبت أن الصناعات اخترعت في عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخي، كما وجدت مشاهد فلكية وأنواع من العلوم كهندسة إقليدس، وطب أبقراط، وطبيعيات أرسطو في الدور الذي عده دورا فلسفيا، فإذا انتقلنا إلى الطور الوضعي وهو العصر الحديث فإننا نعثر على كثير من دعاة الأخلاق والدين والتأمل الميتافيزيقي بخلاف ما كان يظن كونت، فالحالات الثلاث لا لقتل أدوارًا متعاقبة بل تيارات متعاصرة، بل إنها متعاصرة متجاورة في النفس الفردية، فقد تفسر الحوادث العادية بأسبابها ومنا من يفسر الأحداث الخارقة بالقضاء والقدر أو سبب غيبي مجهول.

ويذهب الأستاذ **الدكتور دراز** إلى أبعد من هذا فيقرر أن النظرة الواقعية تقع في البداية وتمثل مرحلة الطفولة النفسية، لأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية وأنها وظيفة الحس لا العقل، ثم تنبثق بعدها نظرة التعليل بالمعاني العامة وهي مرحلة النضج والكمال، أما النظرة الروحية أو الدينية التي تخيل كونت أنها في أول المراحل فهي في الواقع تأتي في آخرها حيث لا تولد في النفس إلا بعد اتساع أفقها حيث تتجاوز ظهر الكون إلى ما ورائه، وهكذا ينقلب ترتيب كونت الخيالي رأسا على عقب، لأن الأوضاع الطبيعية للحاجات النفسية تترتب كالآتي **"" حاجة الحس ثم حاجة العقل ثم حاجة الروح""** على أن الذي يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمي لكل واحدة من هذه النزعات، وانما هو دخولها جميعًا في كيان النفس الإنسانية فكما أننا لا نجد شيء واحدا تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى شيء واحدا يتشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان.

6-2-2/ الأخلاق عند إميل دوركايم (1858- 1917م):

تابع دوركاريم أوجست كونت في فلسفته الوضعية، وجعل علم الاجتماع محور دراساته مستهدفا إقامة الاجتماع علمًا واقعيا مستقلا، فالظاهرة الاجتماعية تؤثر في الفرد وتوجه سلوكه على غير إرادة منه، بل لا يمكنه مقاومة تأثيرها وهي تخضع لقوانين علمية كالظواهر الطبيعية، وتنشأ بنشأة المجتمع لأنها من صنع العقل الجمعي ولها صفة الإلزام، كما أنها تفرض نفسها على الأفراد.

وفي إقامة دوركايم للمذهب الأخلاقي جعل **القيم الأخلاقية** ومثلها العليا كالظواهر الاجتماعية، فهي وليدة المجتمع الناشئة عن اجتماع الناس بعضهم ببعض، ودور علم الأخلاق هو دراستها كما هي بالفعل مرتبطة بالزمان والمكان، واذا ما اصطدمت الواجبات الاجتماعية بعواطف الفرد فإنه كثيرا ما يتغاضى عن مشاعره الخاصة ويخضع للمثل الاجتماعية العلياء، أما إذا سار على قيم المجتمع فإنه يتعرض للسخط والعقوبة وللعقوبة مظهران إحداهما مادية هي القوانين الوضعية، والثانية أدبية تتمثل في سلطة الرأي العام.

وبهذا المعنى ذهب دوركايم إلى أن الضمير يعكس بيئة الجماعة وتلتقي فيه تعاليمها، فالإنسان ابن عصره ووليد بيئته، وأما الدين فهو كالاجتماع قديم بدأت صورته الأولى بتصور الناس قوة لا شخصية متفرقة في الأشياء تمنحها مالها من قوة شم تشخصت في **الطوطم** أولا ثم في الإله الواحد، وأصبحت لنا فكرة الله وهذه الفكرة في زعمه " ليست مستفادة مما نشعر به من قوة باطنة ولا مكتسبة بالاستدلال ولكنها اجتماعية

والدين أقوى مظاهر الحياة الاجتماعية وأعمقها إليه ترجع الصور التي انتظمت بها المعارف الإنسانية" إذ أنه الينبوع الذي تفيض منه القوة الجسمية والقوة المعنوية في أفعال الحياة المشتركة .

وقد وجهت إلى **المفكر "دوركايم"** كسلفه عدة انتقادات منها أنه إذا كانت الأخلاق متغيرة فكيف نعلل ما يبدو لبعضها من ضرورة عند جميع الكائنات، أما عن افتراض الحياة البدائية كمظهر أول للحياة الاجتماعية فإنه يمكن القول بأنها أبسط ما وصل إلى علمنا من حالات، لأنها الحالة الأولى تاريخيًا 'فالاجتماعيون يعدون البسيط قديمًا وليس هذا بالضروري"، ولعل أشد صور النقد وأقواها هي التي يعبر عنها الأستاذ **الدكتور محمود قاسم** في مقدمة كتابه **"مبادئ علم الاجتماع الديني لروجيه باستيد"** فقد انتقد دوركايم أشد الضربات التي كشفت عن أخطاء منهجية وقع فيها هذا الفيلسوف الاجتماعي الفرنسي، ومنها تعسفه في تفسير الحياة الدينية بقانون الأحوال الثلاثة لأوجست كونت، لأن مؤدي النظرية يقول" بأن المجتمع يعبد نفسه» وليست هذه النظرية إلا صورة مشوهة من ديانة الإنسانية التي نبتت في خيال مريض".

ومنها إنكاره شخصية الفرد وجعله دمية في يد المجتمع يخضع لقبول آرائه وأفكاره وعقائده وبنزع عنه العاطفة الدينية، لأنها تنشأ طبقا للآراء والعواطف الاجتماعية، 'وفي هذه النظرية العلمية المزعومة ما فيها من إنكار وجود للنبوات والرسالات والعبقريات"، ويقرر **الدكتور محمود قاسم** أيضا أن ما حدث بالنسبة للعقيدة الدينية هو العكس، فقد كانت عقيدة التوحيد خالصة من كل الشوائب، ثم تطرقت إليها الخرافات الاجتماعية، **"فالتوحيد هو دين الفطرة"** وأن البدائي أقرب ما يكون إلى فكرة التنزيه، وهذه النتيجة اهتدى إليها علماء الأجناس ولقد توالى الأنبياء والرسل عليهم السلام لتطهير العقائد من الشرك وما يتطرق إلى الحياة الدينية من المسخ والتشويه بسبب الأوهام الاجتماعية.

وإذا خصصنا الإسلام بالحديث فإنه لا يوجد في الإسلام وظائف كهنوتية أو سلطة دينية أو غير ذلك من الأمور التي تعبر عن سلطة اجتماعية، وهذا يرجع إلى أن الإسلام يقرر أن المسؤولية الدينية فردية وأن الصلة بين الفرد وربه لا تحتاج إلى وساطة اجتماعية".

6-2-3/ الأخلاق عند ليفي بريل (1897- 1939م):

نَاصَرَ **'بريل"** المذهب الاجتماعي في الأخلاق حيث نظر إلى أنواع السلوك الإنساني كظواهر طبيعية فحسب منتقدًا فلسفة الأخلاق، حيث اقترح علما للأخلاق يحل محلها، ويستند في نقده إلى ثلاثة أمور

الأمر الأول: أن فلسفة الأخلاق ليست علمًا معياريًا يحدد ما ينبغي أن تصبح عليه الأفعال الإنسانية، لأن العلم هو عبارة عن دراسة وصفية للظواهر وقوانينها.

فيتساءل" أليس هناك تناقض بين هاتين الكلمتين الاصطلاحيتين؟ وهل توجد حقيقة علوم معيارية؟".

الأمر الثاني: أنه لا يوجد صلة منطقية بين قواعد السلوك وبين المبادئ التي يستنبطها الفلاسفة من هذه القواعد بدليل أن الفلاسفة مختلفون في المبادئ متفقون في قواعد السلوك.

الأمر الثالث: يضع الفلاسفة قضيتين لا يمكن قبولهما **القضية الأولى** افتراض وحدة الطبيعة الإنسانية الفردية والاجتماعية، بينما الملاحظ أن التباين شديد جدًا بين الناس أفرادًا وجماعات.

والقضية الثانية جعل الضمير أمر مطلق بينما هو نتاج الأيام ووليد التجارب والعادات كما يؤكد علم الاجتماع.

وقد سلك **"ليفي بريل"** مسلك سابقيه أي كل من **كونت ودوركايم** فوحد بين الحقيقة الطبيعية والحقيقة الاجتماعية، فهما يتفقان من حيث كونهما موضوعيين فيقول: "إن الفكرة الجديدة عن العلاقة بين التطبيق العملي والنظرية في الأخلاق تتضمن أن هناك حقيقة اجتماعية موضوعية، كما أن هناك حقيقة طبيعية موضوعية، وأنه يجب على الإنسان إذا كان عاقلا أن يسلك تجاه الحقيقة الأولى نفس المسلك الذي يتخذه حيال الحقيقة الثانية، ومعنى ذلك أنه يجب عليه أن يبذل جهده لمعرفة قوانينها حتى يسيطر عليها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن شرط التأثير في القوانين الاجتماعية التي تسيطر على الظواهر الأخلاقية هو معرفة هذه القوانين أولا، وهذا هو الفن الأخلاقي العقلي الذي يعتبر السبيل الوحيد لتحسين الحياة الاجتماعية **الأخلاقية**.

ونظرا للمراحل الطولية التي ينبغي أن يجتازها هذا العلم فإنه ربما انقضت عدة قرون قبل أن يكتمل أو قبل أن يكون ذا تأثير فعال في الحياة الاجتماعية، ومع إقراره بأن العلوم الاجتماعية ما زالت شديدة النقص وأنها في مراحلها الأولى، إلا أنها ستوقفنا على" الطبيعة الاجتماعية 'وأهميتها، وسيكون لها آثرها الأسمى من" **العلم الخلقي** "**ومن**" **مملكة الغايات 'ومن**" **مدينة الله'** "أي أسمى من تلك الأفكار الخيالية المكررة التي تناقلها علماء اللاهوت والفلاسفة، ولا يخفى من هذه العبارة إفراطه في الخيال" وكأنه نسي أو كأنه يتناسى أن الصلة بين العلم والأخلاق ليست بالقدر الذي يصوره لنا".

وقد هبت في وجه **'بريل'** موجة من المعارضة العاتية تنتقد دعائم نظرياته من أساسها وربما كان أخفها شأنا هو أنه لم يكن مبتكرا لها، وأن الجانب الصحيح في علم العادات الذي يقترحه **'بريل**" صحيح من حيث المنهج الذي يضعه لبحث النظم الاجتماعية المتصلة بالزواج والإرث وتنظيم العمل ومنع الجرائم الخ..

فالبحث قد يدلنا على تاريخ وضعها ومدى تغيرها حسب اختلاف الأزمنة والجنسيات والمواطن فيصبح من الممكن تصنيفها وترتيبها، أي أن هذا العمل يدخل في دائرة الإمكان العلمي.

ولنا أن نتساءل أيضا **"هل معرفة منبع المشاعر الأخلاقية كافية لإمدادنا بما نحن بحاجة إليه من القواعد الأخلاقية إذا سلمنا بأن المعرفة بهذا المنبع ستكون كافية؟** إذ هنا تكمن المشكلة الأخلاقية ولن يكون بوسع الأخلاقيين الاجتماعيين الإجابة على السؤال الذي يسأله الفرد في تلهف 'وما الذي يجب أن أعمله لأكون على سنن الأخلاق؟ وأي موقف أقفه من الماضي؟ وأي قرار حاسم أسير عليه في الحال؟ ".

أي بعبارة أخرى أنه لابد من مبادئ يمكن الاستناد إليها عند الحاجة وهذه الضرورة هي التي ألجأت الأخلاقيين من أصحاب المذاهب المأثورة إلى وضع المبادئ الأخلاقية، بينما لسان حال المذهب عند أمثال **"ليفي بريل"** لا يقدم لنا جوابا بل يدعونا إلى الاضطراب وكأنه يقول: إن الأجيال المقبلة سوف تعيش في عصر بلغ فيه علم العادات مبلغ الكفاية من التقدم، إنهم سيكونون في أحوال كافية لكي يميزوا بجلاء ما كان يجب أن يتبع في هذه الظروف الحاضرة، أما أنتم يا أبناء هذا الزمان فما أنتم سوى بواكير زمن لا يزال هو أيضًا في دور طفولته، إنكم لن تقدروا على أن تعرفوا معرفة علمية ما هو الخير لكم فيما يجد لكم من

أحوالكم، اعملوا إذن ما يبدو لكم أنه الأحسن حسب ما توحيه إليه طبائعكم وأثار تعاليمكم الأخلاقية خطأ كان ذلك أم صوابًا على قدر ما يتيحه الحظ".

إذ أن الاستعدادات الأخلاقية في الإنسان لا يمكن تفسيرها بواسطة هذه الدراسات الأخلاقية المقترحة لعلم العادات الاجتماعية، بل ربما أدت هذه الدراسات إلى هدم مشاعرنا الأخلاقية وإتلافها، والدليل على ذلك أن أصل المشاعر الأخلاقية بفطرتها تثور ضد الزنا بالمحارم، دون الحاجة إلى إرجاع أصلها إلى معتقدات البدائيين البعيدة عن المنطق بل البالغة أحيانا غاية السخافة، وهنا يتساءل **"أندريه كرسون"** فهل تكون هذه المعرفة مما يساعدني على تقوية كراهاتي النبيلة ضد الزناء مما يساعدني على السير سيرة حميدة متزنة؟.

6-2-4/ الأخلاق عند أرســـطـــو:

إذا كان أفلاطون قد وضع الشروط التي ينبغي توافرها في المقاييس الخلقية، فإن أرسطو هو واضع المذهب الأخلاقي المستند إلى فكرة السعادة، ويقول أرسطو في **مقدمة كتابه**" **الأخلاق النيقوماخية**" " إن كل فن وكل فحص وكذلك كل فعل واستقصاء لا يقصد به أن يستهدف خيرا ماء، ولهذا السبب فقد قيل بحق إن الخير هو ما يهدف إليه الجميع"، ويفصل الغايات من الأفعال واختلافها فيتساءل" فما هو إذن الخير في كل واحد منها؟ " أليس هو الشيء الذي من أجله يصنع كل الباقي؟ ويعدد الأمثلة التي يشرح بها رأيه فيقول "في الطب مثلا هو الصحة، وفي فن الحركات العسكرية هو الظفر وهو البيت في فن العمارة، وهو غرض آخر في فن آخر، ولكن في كل فعل وفي كل تصميم أدبي الخير هو الغاية نفسها التي تبتغي، واذا كانت الغائية ظاهرة في الطبيعة فهي في الإنسان أظهر والأخلاق باعتباره علم عملي والعمل يتجه بالضرورة إلى تحقيق غاية، ومن ثم أصبح من الطبيعي أن يبدأ بحثه في تحديد غاية الحياة، لأن الغايات متعددة ومترتبة فيما بينها، لكن لابد من التوقف عند حد لتسلسلها وهي الغاية القصوى التي تحتفظ بقيمة ذاتية وهي غاية الأفعال جميعًا، "هذه الغاية هي من غير شك الخير الأعظم وإن معرفتها تهمنا إلى أكبر حد، لأن على معرفة الخير يتوقف توجيه الحياة"، ويحدد **أرسطو** تعريفه للسعادة كغاية قصوى بقوله "على هذا فالسعادة هي إذن على تحقيق شيء نهائي كامل مكتف بنفسه ما دام أنه غاية جميع الأعمال الممكنة للإنسان"، ويختلف الناس في فهم السعادة حيث يقسمهما أرسطو إلى مراتب ثلاث من حيث السلوك الأخلاقي، فالطائع العامية الغليظة ترى السعادة في اللذة إذ يختار أكثر الناس بمحض ذوقهم عيشة البهائم.

وضد هؤلاء أصحاب العقول الممتازة النشيطة وغايتهم تحقيق السعادة في المجد أو الكرامة السياسية وتبقى المرتبة الثالثة من مراتب السلوك الأخلاقي وهي مرتبة حياة الحكمة والتأمل أو العيشة التأملية والعقلية وهي السعادة الحقة عند أرسطو، وقد اتخذ **أرسطو** منذ البداية نفس موقف سقراط وأفلاطون في محاربة اللذة واعتبر السعادة غاية قصوى لأفعال الإنسان، وها نحن نلاحظ في تقسيمه للسلوك الأخلاقي أن الاقتصار على اللذة يجعل الإنسان في مرتبة البهائم، ذلك أن الإنسان يتميز عن سائر الكائنات بالعقل وكمال وجوده مرهون بتأديته لهذه الوظيفة، لأنه يشارك النبات في النمو والحيوان في الحس، ولكنه ينفرد دونهما بالتأمل العقلي "ومن ثم كانت مزاولة التأمل أكمل حالات الوجود الإنساني".

وترتبط الفضيلة بالسعادة في مذهب أرسطو فيقول "ما دام أن السعادة على حسب تعريفنا هي فاعلية ما للنفس مسيرة بالفضيلة الكاملة، يجب علينا أن ندرس الفضيلة وسيكون هذا وسيلة عاجلة لتجديد فهم السعادة ذاتها أيضا، والفضيلة تكون حيث تؤدي قوى الإنسان وظيفتها"، ولما كان الإنسان يجمع بين الشهوة والعقل، فإن الفضائل صنفان أحدهما يتمثل في التغذي بالحق، والثاني يتمثل في حياة التأمل العقلي.

ومن ثم تصبح فضيلة الصنف الأول في السيطرة على الشهوات والأهواء بواسطة العقل، وفضيلة الصنف الثاني في حياة التأمل وهي أسمى من الأول بكثير، والسعادة بصفة عامة تجمع بين هذين الصنفين ومن نظرته إلى هذه الثنائية في الإنسان، أي الشهوة والعقل فإن الفضائل نوعان أحدهما عقلي والآخر أخلاقي (فالفضيلة العقلية تكاد تنتج دائمًا من التعليم واليه يسند أصلها ونموها، ومن هنا فهي في حاجة إلى التجربة والزمان، وأما الفضيلة الأخلاقية فإنها تتولد على الأخص من العادة والشيم، ومن كلمة الشيم عينها بتغيير خفيف اتخذ الأدب اسمه المسمى به).

فليست الفضيلة طبيعية إذن، بمعنى أن الفضائل ليست فينا بفعل الطبع وحده وليست فينا كذلك ضد إرادة الطبع، ولكن الطبع قد جعلنا قابلين لها، ومن هذه العبارة ندرك أهمية التربية عند أرسطو، فالفضيلة تتعلم كما يتعلم أي فن "بإتيان أفعال مطابقة لكمال ذلك الفن، وتفقد بإتيان أفعال مضادة، والأفعال المطابقة تخلق ملكات أو قوى فعلية تجعلنا أقدر على إتيانها، ومعنى ذلك بلغة أرسطو أننا لا نكتسب الفضائل إلا بعد ممارستنا لها شأنها في ذلك شأن الفنون جميعها التي لا نتعلمها إلا بممارستها، فالإنسان يصبح معماريًا بما يبنى، وموسيقيًا بممارسة الموسيقى، ويصبح عادلا بإقامة العدل، وحكيما بمزاولة الحكمة، وشجاعا باستعمال الشجاعة.

واذا تساءلنا عن كيفية تحديد الفضائل الخلقية عند أرسطو؟ لعثرنا على إجابته عندما يتحدث عن أفعال الإنسان وضرورة الأخذ بفكرة الوسط، فكما أن كثرة الأطعمة تفسد الصحة فكذلك قلتها عن الحد اللازم تؤثر على الصحة، فالأمر كذلك بالنسبة للفضائل الإنسانية كالعفة والشجاعة وغيرهما " إن الإنسان الذي يخشى كل شيء ويفر من كل شيء ولا يستطيع أن يحتمل شيئا هو جبان، والذي لا يخشى البتة شيئًا ويقتحم جميع الأخطار هو متهور، كذلك الذي يتمتع بجميع اللذات ولا يحرم نفسه منها هو فاجر، وهذا الذي يفعلها جميعًا بلا استثناء كالمتوحشين سكان الحقول هو نوع من كائن عديم الحساسية، وذلك بأن العفة والشجاعة تنعدمان على السواء إما بالإفراط وإما بالتفريط ولا تبقيان إلا بالتوسط.

الفضيلة إذن هي وسط بين طرفين كلاهما رذيلة، ولكن هذا الوسط الذي يعنيه أرسطو هو وسط اعتباري يتغير بتغير الأفراد والظروف التي تحيط بهم، والعقل وحده هو الذي يحدد هذا الوسط، ولكن الفضيلة ليست غاية لسلوك الإنسان، وإنما هي وسيلة لغاية هي السعادة، ولذا فإن الفضائل إرادية.[14]»
فهو يقول "حينئذ الفضيلة بلا أدنى شك تتعلق بنا وكذلك الرذيلة تتعلق بنا أيضًا، واذا كان إتيان الفعل الصالح يتعلق بنا فإنه يتعلق بنا أيضًا ترك الفعل المخجل".

ويقتضي ذلك أن يحقق الفاعل في نفسه شرطين بالإضافة إلى العلم هما: " استقامة النية والمثابرة" ومن ثم يصبح الفعل صادرًا عن ملكة ثابتة، "ومن يتوهم أن المثابرة غير لازمة للحصول على الكمال مثله مثل المريض الذي يريد الشفاء ولا يستعمل وسائله"، وهذا بإيجاز بعض معالم المذهب الأرسطو طاليسي في الأخلاق الذي لم يسلم من بعض المآخذ التي وجهت إليه لا سيما في فكرة الوسط فإن هذا الضابط لا يصلح لكل الفضائل، فإن الصدق مثلا هو مطابقة الخير للواقع، ويظهر تكلف أرسطو حين يقول 'إن الصدق وسط بين التبجح وبين التواضع الكاذب"، ولعل أهم مأخذ في نظريته الأخلاقية أن يستند إلى مذهبه الغائي نفسه وأنه يثبت الغائية في الطبيعة، فالطبيعة عنده تعني أمرين هما: المادة والصورة، فالصورة هي الغاية التي من أجلها يتم إنجاز الشيء، فإذا لم تتحقق الغاية من أي موجود طبيعي كما يحدث بالنسبة للمسخ 'فإننا نقول إنه قد حدث فشل في المجهود الغائي"، وهذا ما لاحظه في صور الحياة المختلفة من أدناها إلى أعلاها، فالنبات الذي تمتد جذوره إلى باطن الأرض يمدها بالورق والأوراق تمد الثمار بظل يحميها والطائر يبنى عشه والعنكبوت ينسج بيته...» وهكذا فإن كمال الوجود مرهون بمدى تأديته لوظيفته.

فأفكار شيوخ المسلمين المعاصرين الذين تتملكهم مشاعر سامية وحب إلهي لا يجدون في تعاليم أرسطو الأخلاقية زادًا، وهذا ما تحقق منه شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عارض النتاج العقلي للفلسفة اليونانية بكل ما أوتي من ثقافة إسلامية عميقة ودراسة شاملة لكافة جوانب الفكر الإغريقي، مع إحاطة واعية بمعافي الكتاب والسنة، إنه يقر بأن الله سبحانه أمر بالتفكر والتدبر والنظر أي استخدام العقل كوسيلة للمعرفة والاستدلال، إنه لم يعارض الفلسفة بذاتها كلون من ألوان التفكير أو النظر العقلي ولكنه وقف بصلابة معارضا لكافة التصورات الفلسفية الإغريقية التي تسربت لفلاسفة المسلمين، لأنها لا تتفق مع الحقائق التي يمدنا بها الكتاب وتوضحها لنا السنة في أحسن بيان وأكمله.

وفي موضوع الأخلاق اتخذ نفس الموقف العدائي من الفكر اليوناني، فنراه مثلا يوجه سهام نقده إلى رأي فلاسفتهم في النفس، فهي عندهم تشتمل على شهوة أو غضب من حيث القوة العملية، ولها نظر من حيث القوة العلمية، ورأوا في الوسط هو الكمال دون أن يعرفوا محبة الله وتوحيده وهو هنا يعني أرسطو بصفة خاصة، وبعبارة أخرى كانت نظرياتهم لا تتصل بالتوحيد والإيمان بالله الذي بنى به المسلمون عقيدتهم في الأخلاق، فإن محبة الله وتوحيده هو الغاية التي تؤدي إلى صلاح النفس حيث تتحقق الصلاحية بعبادة الله تعالى وحده، كما لا تتم زكاة النفس إلا بالتوحيد واخلاص العبودية لله عز وجل وحده، وهذا معنى قوله تعالى: **{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ06 الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ 07 }** (سورة فصلت الآية 06-07).

'فابن تيمية" لا يفسر معه الزكاة هنا بزكاة الأموال وهي النصاب المحدد الذي يجب إخراجه عن الأموال التي مضى عليها الحول، ولكنه يفسر الزكاة بزكاة النفوس، فإن ما تزكو به النفوس هو التوحيد ولوازم الإيمان، وعلى العكس من لم يخلص لله ويزكي نفسه لا يصبح من أهل النجاة والسعادة، ولعل أقوى الحجج التي استند إليها شيخ الإسلام طعنه في نظريات الفلاسفة الأخلاقية، وهي أنها اختيارية وليست ملزمة

من جانب، كما أنهم من جانب آخر ذكروا الفضائل الأربعة للنفس وهي **"العفة والحكمة والشجاعة والعدالة"** دون تحديد دقيق لما تحتاج إليه النفس لتحقيق النجاة والسعادة.

خلاصة:

نستنتج بأن الأخلاق هي من الأشياء الأساسية والهامة في حياتنا، ومن خلال الأخلاق الحميدة سوف يصبح المجتمع متقدم ومتطور، لأن الأخلاق السيئة تسبب انهيار وتدهور في المجتمع بأكمله، ولذلك ينصح بأن يتسم جميع الأشخاص بالأخلاق الحميدة، وأن يتبعونها لكي يصلح المجتمع ويتطور، والأخلاق هي من الفضائل الهامة التي دعانا الله سبحانه وتعالى باتباعها لكي نحصل على المحبة والثقة من جميع الأشخاص، فالإنسان ذات الأخلاق العالية سيحظى بتقدير واهتمام كبير من طرف الجميع، والأخلاق هي من ضمن الأساسيات الهامة للتعامل بين الناس.

كما أنّ الأخلاق لها رائحة طيبة كالعطر الرائع الذي يلفت انتباه الناس إليه، ويجذبهم ويقع حب صاحبها في القلب ولا يزول أبدًا، فالناس يميلون إلى الشخص الخلوق لأنهم يرتاحون معه ويستأمنونه على حياتهم واموالهم، فالأخلاق الفاضلة هي ميزان التفاضل بين الناس، فمن كانت أخلاقه كريمة وطيبة أحبّه الجميع، لهذا يجب أن يحرص كلّ شخص على التحلّي بمكارم الأخلاق، وأن يكون دومًا قدوة للآخرين.

المصادر والمراجع:

1/ المصادر:

1-1/ القرآن الكريم:

1- { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ06 الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ 07 } (الآية **06-07** من سورة فصلت).

2/ المراجع:

2-1/ الكتب باللغة العربية:

1- برتراند رسل: **تاريخ الفلسفة الغربية**، ج1، وترجمة د. زكي نجيب محمود، مراجعة أحمد أمين، 1967م، ص251.

2- برتراند رسل: **تاريخ الفلسفة الحديثة**، ج 3، ترجمة محمد فتحي الشنيطي 434، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1967.

3- مصطفى الخالدي، عمر فروخ: **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، **1973**، ص**196**.

4- جارودي: المشكلة الأخلاقية والفكر المعاصر، ترجمة محمد غلاب، مكتبة الأنجلو المصرية سنة **1958**، ص**3**.

5- توفيق الطويل: **أسس الفلسفة**، مكتبة النهضة المصرية، **1955**؛ ص**(180- 181)**.

3/ الروابط الالكترونية:

رابط الكتروني : https://www.alukah.net/culture